الرسالة فى عامها العشرين

للأستاذ محمد رجب البيومى

أستاذى الزيات

هذا خطاب أوجهه على صفحات الرسالة الغراء الى زميلى الأستاذ محرز أحمد خفاجى المدرس بالمدارس الثانوية . إعترافا بما للرسالة علينا من فضل كبير فى التربية والتثقيف . وأعتقد صادقا أنه يعبر عن عواطف الثات من الأدباء الذين تمهدتم بجلكم العظيمة بالتوجيه والتعليم . فأدت بذلك رسالتها الخالدة فى الحياة . وأرجو ألا يحذف منه حرف واحد . فقد تعودتم أن تتفلوا كل ما يخطكم من ثناء . ونحن هنا نسجل تاريخا لا يجوز فيه الحذف والإغفال بحال وتفضلوا بقبول فائق احترامى

محمد رجب البيومى

صديقى العزيز

حين تناولت القلم لأكتب إليك ، تذكرت أن الرسالة تستقبل عامها العشرين ، فرأيت أن يكون حديث اليوم عن تلك المجلة الحبيبة التى عقدت أواصر الصداقة بيننا ، إذ لولا الرسالة لما كنا من سبعة عشر عاما مضت إلى اليوم صديقين حميمين كأحسن ما يكون الأصدقاء

أذكر أنى كنت أجلس معك فى حجرة واحدة بمعهد دمياط الابتدائى ، وقد لمحت فى يدك مجلة تتصفحها فى سرور وبهجة ، فاستأذنتك فى قراءتها ، فخفت أن أكون منها رأيا خاطئا لأول مرة ، فدعوتنى إلى الجلوس جوارك ، وقلت فى اهتمام : هذه أحسن مجلة أطالعها فى مصر . ويجب على جميع الطلاب أن يتابعوا قراءتها باعتناء ، فهى الصحيفة التى تهذب الأسلوب ، وتثقف العقل . ثم مددت يدك إلى القمطر ، وأخرجت كراسة الإنشاء لتريني درجاتك العالية فى التعبير ، ناسبا تفوقك الجديد إلى الرسالة فهى وحدها صاحبة الفضل فى هذه الدرجات !!

وأذكر أن درجاتك الممتازة ، قد جذبت اهتمامى إليك وإلى الرسالة فخرجت من الدراسة متجها إلى بائع الجرائد ، وأخذت نسخة من الرسالة ، وقضيت بقية اليوم ، وجزءا خير قصير من الليل أتصفحها ورقة ورقة ؛ ففهمت أكثر ما تحتويه من مقالات وقصص ، وقصائد ، وشعرت بإكبار وإجلال نحو عالم أفهمه من البحوث العلمية الدقيقة ، متعللا بقرب اليوم الحبيب الذى ستتسع فيه ملكة الفهم لدى ، فأستوعب جميع مافى الرسالة الحبيبة ، من الغلاف إلى الغلاف !!

ورجعت إليك فى اليوم الثانى لمحدثتك عما فهمته ومالم أفهمه ، فوجدتك تشاركنى الرأى وتقف من موضوعات الرسالة موقفى منها سواء بسواء . ومن هذا اليوم بدأنا نجلس معا على قطر واحد ، ونتنزه معا إذا أردنا الأزهة ، ثم لا نترك الحديث يوما واحدا عن الرسالة ، فنحن إذا أتى المدد الأسبوعى نطالعه بجد ويقظة ، ثم نتقابل ليذكر كل منا ما علق بذهنه من الأفكار الجديدة ، والأبوات الطريفة ؛ وبدأنا نكون لنا آراء خاصة عن الأدباء من كتاب وشعراء . وكنا نفترق فى بعض الأحيان فأفضل كاتبا نرى غيره أحق منه ، وأميل إلى شاعر نميل عنه ، ولكل منا براهينه المسهبة ، ودفاعه الطويل

وجاءت العطلة الصيفية فلم نحزن لشئ حزننا على انقطاع حديثنا الأدبى عن الرسالة . ثم اتفقنا على أن نتراسل أسبوعيا ، فأكتب إليك وتكتب إلى ، وكان الحديث لا يتجاوز الرسالة فى أكثر سطوره . وما زلت أذكر حملاتنا الصاخبة فى رسائلنا السافلة — على الأستاذ الكبير سيد قطب إذ كان يهاجم الرافعى ، وقد خيل إلينا فى طور اليفاعة أن قطبا متجن أكثر التجنى ، وأن الرافعى أكبر من أن يتوجه إليه النقد بشئ !! والغريب أننا الآن نرفع الأستاذ سيد قطب إلى قمة شاهقة ، ونراه رائد جيل فى الإصلاح ، وصاحب مذهب فى النقد والأدب ، وداعية أمة إلى الإسلام !! فانظر يربك إلى المدى الشاسع بين النظرتين ، نظرة اليفاعة المتسرعة ، ونظرة الشباب البصير . وكان مما يهيج خاطرينا معا أن نرى المدرسين يرمقوننا دون الزملاء بعين الإعجاب والاهتمام ، فإذا تقدم أحدنا برأى فى موضوع ، أو ناقش فكرة لكاتب ، وجد العيون مفتحة ، والعقول منتبهة ، وسمع الرد مشفوعا بالإطراء والتقريظ . وكنا نرجع ذلك إلى الرسالة وحدها ، فهى التى دفعت بتفكيرنا إلى الأمام ، وتعاونته بالصقل والتهذيب !!

ولا أزال أذكر أنك قلت لى ذات عشية : يجب أن نشترى الكتب الأدبية النفيسة . فقلت لك وكيف تشترى الكتاب قبل أن تتأكد من صلاحيته ؟ فأسرعت تقول : لنا ميزان لا يخطئ ، فإذا كان المؤلف من كتاب الرسالة فعلينا أن نسارع إلى اقتناء كتابه . وإذا لم يكن من كتابها وقد نشرت عنه الرسالة فى صحيفة الكتب تعريفا أو نقدا ، فعلينا أن نحدد موقفنا منه على ضوء هذا التعريف . وإذا لم يكن هذا وذاك فلن نبعثر نقودنا فى الهواء . وكان رأيك هذا مقبولا لدى فى ذلك الحين ، فلم أشذ عنه فى كثير أو قليل

أين الأيام السالفة ياصديق العزيز ، وأين أحاديثها الأدبية المشتهاة ! ليتنا قمنا بتسجيلها برغم ما تتسم به من عجلة واندفاع ، ففيها ما يعجب ويروق ، وفيها ما يضحك ويدهش !! لقد كان لنا عن كل كاتب وشاعر حديث عريض نقطع به الوقت الطويل . ولا أذكر أن كاتبا اغتصب أكثر أحاديثنا فى فترة الدراسة الثانوية كما اغتصبها الدكتور زكي مبارك ، فقد وقف فى ميدان الرسالة كما يقف الملاكم فى ميدان الرياضة ، يصارع هذا فى عنف ، ويناقش ذاك فى حدة ، ويثير فى الأفق الأدبى عواصف شديدة عاتية . وكنا نعجب بسلاسته واندفاعه ، وكانت روحه الفتية تحلق بنا فى أوج شاهق . وكم يدركنا الأسف الآن إذ نشهد زكيا قد نزل عن سمائه بعد أن ترك الرسالة ، فنراه يقف الآن فى آخر الصفوف ، وكنا نرقب له الغد المشرق البهيج !

لقد قلت لك ذات مرة إن الدكتور زكى مبارك يكتب الحديث ذا شجون ببعض الصحف قارئا مضطربا ، وكان حديثه فى الرسالة بهجة العين وأنس الفؤاد ؛ فكيف يتفق ذلك مع اتحاد الكاتب والموضوع ؟ فقلت فى سرعة بادهة : إذا اتحد الكاتب والموضوع فلن تتحد الصحيفتان ! وكانت إجابة موفقة أكدت ما نجله للرسالة من تقدير وإعجاب

ونحن الآن نشعر بحب طاغ للدولة العربية ، ونشيد بعظمائها من الزعماء والأدباء ، ونحس أن مصر والعراق ولبنان وسوريا وتونس والجزائر واليمن والحجاز وسائر الأمم العربية وحدة لا تنقصم ، فمن أكد فى نفوسنا هذا الحب الأكيد ؟ إنها الرسالة ياصديق العزيز ، فلطالما طالعتنا بقضايا الدول العربية السياسية ، وعالجت أمامنا مشاكلها الاجتماعية والخلقية ، وأفسحت صدرها للنخبة المختارة من أدبائها ونقادها ، فكانت بحق ديوان العرب المشترك ، وسجلهم الحافل بأنبائهم وأخبارهم ، المقرب لأفكارهم واتجاهاتهم ، بل لم تكتف الرسالة بقضايا الدول العربية وحدها ! فتجاوزتها إلى الممالك الإسلامية قاطبة . وكم قرأنا فى صفحاتها أبحاثا هامة عن إيران وتركيا والباكستان وأندونسيا وبلاد القوقاز ؛ وطالعنا الكتاب من أبناء هذه البلاد كلمات خالدة فى الوحدة الإسلامية ، والإخاء المحمدى ، مما نرجو أن يكون حقيقة واقعة فى العاجل القريب . ولعلك تذكر أننا قرأنا فى الرسالة ذات أسبوع بحثا هاما عن الفقه الرومانى وعلاقته بالفقه الإسلامى لكاتب مصرى ، ثم أعجبنا أن نجد الردود تتدفق على الرسالة من سنغافورة ودمشق وحضرموت والعراق دائرة حول هذا الموضوع ، فكأن الرسالة قد أهابت بكل باحث فى شتى الأمم الإسلامية ، أن يلق دلوه فى الدلاء ، فتقدم هؤلاء الأفاضل مسرعين . فإذا ما رأينا اليوم أبناء الأمم الإسلامية متكاتفين متساندين ، فيجب أن نذكر الرسالة الحبيبة وكفاحها المجيد !

ثم دارت الأيام ومضت بنا الدراسة الثانوية إلى الدراسة العالية بكلية اللغة العربية ، وسمعنا أساتذتنا يلقون علينا الدروس العلمية فى تاريخ الأدب والنقد وفقه اللغة والنحو والعروض ، فكنا نجد من يسمو بعقولنا — فى محاضراته وأبحاثه — إلى أفق رفيع ، ومن يعكف على مراجعه القديمة ليقدم خلاصتها دون أن يلم بما تمخضت عنه الأبحاث الأدبية فى العصر الحديث . وكنا لا نفتأ نواجه هذا النوع من الأساتذة بما اكتسبناه من الرسالة وغيرها من نقد وتحليل ، غير عابئين بعد ذلك بما يكون من تبرم وضيق . ولعلك تذكر بالخير شيخ أساتذة الأدب بالكلية ، وسيد علمائها الأستاذ الكبير أحمد شميع السيد فقد كان يذكر لنا الرسالة دائما بين مصادره المديدة فى تاريخ الأدب العربى ، وقد ينقل بعض أبحاثها الأدبية عن الشعراء الأقدمين معقبا بما يمن له من نقد أو توجيه . وكنا نسمع محاضراته فى شوق وإعجاب يزيدان عن الوصف . وحين أدرك اهتمامنا بالرسالة ، غمرنا بوده ، وذال لنا كثيرا من العقاب فصرنا لا ندرى أنتقدم إليه بالشكر ، أم إلى مجلة الرسالة التى تربط بين قلوب المتأدبين من أساتذه وطلاب برباط وثيق

وان أفادتنا الرسالة فائدة تامة فى الدراسة العالية بالكلية ، فقد كان هذا أمرا نتوقعه لما بين أبحاث المجلة ودروس الكلية من ارتباط ، بل من يدرى ؟ ربما تكون الرسالة هى التى وجهتنا إلى كلية اللغة دون أن نشعر ، لما غرسته فى نفوسنا من حب للأدب وهيام بتاريخه ورسائله . ولكن الذى لم نكن نتوقعه بحال ، أن نجد الرسالة الغراء تأخذ بأيدينا فى معهد التربية العالى للمعلمين وتعيننا على استكناه مسائل التربية الحديثة ، وتفهم علم النفس بما نشرته من أبحاث فى هذين العلمين . وأذكر جيدا أنى جعلت الرسالة بين مصادرى العلمية حين كتبت مقالاتى فى امتحان الدبلوم فقد اعتمدت على ما كتبه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد والدكتور فضل أبو بكر فى الذكاء والطفولة بأعداد الرسالة ، لأن الزيات الحصيف كان — ولا يزال — يولى الأبحاث الغربية الحديثة ، ومن بينها علم النفس والتربية ، عناية فائقة اينأى بالفكر العربى عن جموده وقيوده ، ويطلق أمامه الباحات الرحيبة للسير ، والأجواء الفسيحة للتحليق . ونحن الآن وقد جاوزنا التعلم إلى التعليم ، وانتقلنا إلى تدريس اللغة العربية بالمدارس الثانوية نجد تلاميذنا فى حاجة ماسة إلى مجلة أدبية تقيم الألسنة المعوجة ، وتشحذ التفكير الواهن ، وترفع الخيال الهابط ، وان تكون هذه المجلة غير الرسالة ؟ فقد نجحت تجربتنا معها — ومع الآلاف من قرائها — أتم نجاح ، وكانت نعم الناصر المعين

لقد أطلت الحديث عن أثر الرسالة فى الأدب والثقافة ، وتركت أثرها فى الأخلاق والسلوك ، وما أظنك تجهله ، فقد انتشرت المجلات الخليعة التى تتملق الغرائز ، ووقفت الرسالة أمام التيار الجارف تدعو إلى المثل العليا والأخلاق القويمة ، وتشن الحرب على التخنث والمجون ، وقد حاربت الأدب المكشوف محاربة منتصرة ، فدحضت حجة هؤلاء الذين لا يرون فى الأدب والشعر غير الحديث عن الفضائح والمخزيات ، متشبعين بما تذيعه الصحف الملوثة عن فضائح بودلير وفلوبير وجيد ولورنس ! وكأن هؤلاء لم يرزقوا البيان الناصع إلا لشذوذهم الوضيع وإسفافهم الشائن ، فى رأى جماعة من المحررين ، وقد ساهم مع الزيات فى إيجاد أدب خلق رفيع صفوة من أصدقائه وحواريه ، وعلت فى سماء الرسالة صيحات الرافعى وعزام والزيات وفريد وجدى والطنطاوى وخلاف وقطب وأضرابهم من سماة الفضيلة والأخلاق . ولا زلت أذكر أن الأستاذ الزيات قد كتب مقالا عن تاجر يحاول أن يتحلل من قيود الخلق والكرامة لينجح فى تجارته ، مدعيا أن الغش والنفاق هما طريق زملائه إلى الثراء . وما كاد الزيات يفضحه أمام القراء حتى ابرى عبد الوهاب عزام وأمين الخولى وعلى الطنطاوى والزيات مرة أخرى يتصدون للفضيلة فى مقالات حارة تهدى إلى طريق النجاح ، وأنا — بكل صراحة — حين أعمل اندفاعى إلى جماعة الإخوان المسلمين أجد الرسالة ذات أثر غير مباشر فى ذلك ، فقد غرست فى نفسى حب العروبة ونصرة الإسلام ، وبغض الاحتلال ، كما رسمت بأقلام كتابها صورا واضحة للمسلم الأبى الغيور ، وقد وجدت أهداف الاخوان لا تخرج عن ذلك . بل أذكر أنى حضرت ذات ليلة مجلس الأستاذ الزيات فى ندوة الرسالة فسمعته يتحدث عن محاربة الاستعمار للشرق والإسلام بكل سلاح مدمر غير مشروع ، ثم انتقلت عقب ذلك إلى مجلس المغفور له الأستاذ حسن البنا ، فوجدت الحديث متصلا يندد بفضائع الاستعمار ومحاربة الإسلام !! وكأنى لم أنتقل من مكان إلى مكان ، فرحم الله المرشد الشهيد ، وكتب للزيات عمرا فسيحا يسعد به الشرق والإسلام

أرى أن الحديث عن الرسالة يذهب بى كل مذهب ! حتى لأعجز أن ألم بأطرافه ، فهو حديث الصبا والشباب والآمال ، وحديث الخلق والمروءة والإسلام ! ولو كنت معى الآن لحدثتك بما يزدحم فى صدرى من الخواطر عن الرسالة ، ولكن القدر الذى جمعنا أثناء الدراسة فى معهد واحد ، وأجلسنا على مقعد واحد ، قد باعد ما بيننا أثناء التدريس ، فأصبحت أدعوك من مكان بعيد ، راجيا لك السعادة والصفاء

فهيهات العقيق ! وكيف يدنو ؟

وهيهات الفداة فتى العقيق

(أبو تيج) محمد رجب البيومى